إنقاذُ الحضارة العالميَّة من خلالِ الحوار البَنَّاء
نقد نظريَّة ما بعدَ الحداثة في التَّعامُلِ مع الأَدْيانِ

آية الله علي رضا أعرافي *

مقدّمة

نعتقدُ أنّ الأنظمةَ السّياسيّةَ والاجتماعيّةَ غيرُ مبنيّةٍ على أساسِ الثّقافاتِ المختلفةِ فقط؛ بل على أساس جُمْلةٍ من المصادر الّتي تشترك في أنّ من شأنها أن تكون الجامع الّذي يُوحّد بين الثّقافات المختلفة. ويمكنُ للحوار المُستند إلى هذا المنطق أن يكونَ شاملًا للعالَم كُلِّه. ويعتمدُ هذا الموضوع على أساس منطقٍ إنسانيٍّ عميقٍ وأصيل، ويشملُ الفَلسفةَ الإنسانيّةَ، والنّظامَ الحقوقيَّ، والفقهَ، والنّظامَ الأخلاقيّ المُشترَكَ. ويجبُ على البَشَرِ التَّقدُّمُ في هذا المجال بُغْيَةَ الوصولِ إلى هكذا حواراتٍ مبنيّةٍ على أصولٍ عقليّةٍ، وإنسانيّةٍ، وفلسفيّةٍ.

إنقاذِ الحضارةِ العالميّة

﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ ﴾[1].

---

* رئيس الحوزات العلميّة في إيران.

1- سورة آل عمران، الآية 64.

يُعَدُّ التَّفاعُلُ والحوارُ بينَ الأديانِ المختلفة، من أهمِّ الضّروراتِ وأكثرِها فائدةً في المُجتمعاتِ الإنسانيّةِ والدّينيّة في عالمنا المعاصر. ويمكنُ للعلاقاتِ الواسعةِ بين الشّعوب وتفاعُلِ البشر فيما بينَهم وتعايشِهم السِّلْمِيّ مع بعضهم بعضًا، أن يُحدِثَ تقدُّمًا في ما يرتبط بالأهداف الإنسانيّة والبشريّة في عالمنا المعاصر. وفي عصرنا الحالي الّذي يتميّز بتعقيداتٍ سياسيّةٍ واجتماعيّةٍ وثقافيّةٍ أكثرَ من السّابق، ويُعَدُّ التَّفاعلُ البنّاءُ والإيجابيُّ بينَ الأديانِ والمذاهب من أهمِّ السِّمات والحاجات لإنقاذ الحضارةِ العالميّةِ، ولإيجادِ المحبّةِ بينَ المجتمعاتِ البشريّةِ، وهذا ما يصلُحُ لأن يكونَ العنوانَ العامّ لجميع المناسبات وفي شتّى الميادين. كما يؤدّي التّفاعُلُ المذكورُ دورًا مهمًّا ومُؤثّرًا في التّقريب بين الأديان في المجتمعِ الإنسانيّ. وتستطيعُ القِيَمُ المشتركةُ بين الأديان أن تُلَبِّيَ بسهولةٍ حاجاتِ البشر. ويُشكِّلُ التَّنوُّعُ الدِّينيُّ وتعدُّدُهُ فرصةً استثنائيّةً للمجتمع الإنسانيّ؛ إذ يؤمِّنُ في إطارٍ من الحوار بين الأديان وتبادلٍ لمكتسباتها، فَهْمًا أَعْمَقَ ورؤيةً أوضحَ للمجتمع الإنسانيّ. ونحن نعيشُ في عالم تؤدّي فيه مقولاتٌ ثلاثةٌ، هي: الثّقافةُ، والهُويّةُ، والعاداتُ دورًا مُهمًّا لا مجالَ لإنكارِه، أو الاستغناءِ عنه. فأيّ تغييرٍ في عالمنا المعاصر، هو في أصله تغييرٌ في الثّقافة والهُويّة. وفي هذا الصّدد، تؤدّي الأديانُ دَوْرًا مُهِمًّا في تشكيلِ الهُويّةِ العالميّة. وممّا لا شكَّ فيه، أنّ جميعَ القِيَمِ الإنسانيّةِ الّتي نعيشُ على أساسها، لها جَذْرٌ في بعض السُّنَنِ المعنويّةِ والدّينيّةِ الموجودةِ في العالم. على هذا الأساس، صحَّ أن يُقالَ: إنّ للدِّينِ دَوْرًا لا بديلَ عنه في حياةِ البشر ونَمَطِ حياتِهِم. وقد سعى كلُّ واحدٍ من الأنبياء والرُّسُل عليهم السلام إلى إيجادِ نَمَطِ حياةٍ توحيديٍّ، وإلى نَفْخِ رُوحِ المحبّةِ والأُلْفَةِ في أعماق البشريّة، كما انطلقوا من مُتطلِّبات المجتمع واحتياجاته، فدعَوْا أتباعَهُمْ إلى أن يُحِبَّ بعضُهُم بَعضًا. فخطَوا بذلك خُطوَةً مُهِمَّةً تجاهَ إيجادِ مجتمعٍ مُتّحدٍ مُنسجمٍ.

التّعايُش السِّلميُّ بين الأديان

يرى الإسلامُ والقرآنُ أنّ جميعَ الأنبياءِ عبارة عن سِلْسِلَةٍ واحدةٍ مُمتَدَّة، وأنّ الكُتُبَ والصُحُفَ السّماويّةَ تُشَكِّلُ منظومةً واحدةً مُتكاملةً، وأنّ الأديانَ الإلهيّةَ كانت طوالَ التّاريخِ الصّراطَ المستقيمَ، وأنّها نزلت بِطَوْرٍ تدريجيٍّ تكامُلِيٍّ[1]. ولقد

1- كما في الآية 25 من سورة الحديد ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾.

أشار الله ـ تعالى ـ في كتابه الكريم إلى أنّ الجبهة التّوحيديّة كان لها وجودٌ على امتداد التّاريخ الإنسانيّ، وأنَّ الأنبياءَ الإلهيِّينَ كانوا قادتَها ورُوّادَها[1].

ذكر القرآنُ الكريمُ باحترام وتبجيلٍ ما يقاربُ الثّلاثين نبيًّا من بين آلافِ الأنبياء. وتهدفُ جميعُ الأديانِ الإلهيَّةِ إلى تحقيقِ سعادة البشر ونجاتهم في الدُّنيا والآخرة. أمّا الرّسائل السّماويّة فرُوحُها الاعتقادُ بالتّوحيدِ وعالم الغَيْبِ والأنبياءِ الإلهيّين، والاهتمامُ بالأخلاقِ والقِيَم الإلهيَّةِ والإنسانيّة. هذا، وليست الدُّنيا من منظور الأنبياء الإلهيّين منفصلةً من الآخرة؛ فحياةُ الفرد في هذا العالم تمهّدُ لحياته في العالم الآخر. وقد رسمت الأديانُ الإلهيّةُ الخطوط العريضةَ الضّامنة لسعادة البشر في هذا العالم. وتجدُرُ الإشارةُ إلى أنَّ الأنبياءَ أولي العزم كانوا بمنزلةِ نقاطِ تحوُّلٍ في تاريخ الأنبياء، فَهُمْ أصحابُ شرائعَ عالميّةٍ، وكتبٍ سماويّةٍ، وبينهم كثيرٌ من المشتركات. هذا، وتزدادُ المشتركاتُ بين الأديان الإبراهيميّة، لا سيّما بين الإسلام والمسيحيّة. ويؤكّدُ القرآنُ العلاقة الوثيقة والرّحيمة بين المسلمين والمسيحيّين، وقد اعترف بهذا الدين الكبير بشكل رسميٍّ، ودعا إلى التعايُشِ السّلميِّ مع أتباعه[2].

تعامُل النّبيّ ﷺ والأئمّة عليهم السلام مع الأديان المختلفة

تاريخيًّا، أدَّى الأنبياءُ دورًا مُهمًّا في توحيدِ المجتمع وتعزيزِ المحبّةِ بين أفراده. كما استطاع كلُّ واحدٍ من الأنبياء اعتمادًا على تلك التّعاليم وغيرها من التّعاليم الأخرى الكثيرة، أن يُوجِدَ نَحْوًا من الوحدة بين أجزاءِ المجتمعِ البشريِّ.

بعد الأنبياء، أدَّى الأوصياءُ والعلماءُ دَوْرًا مُهِمًّا على امتداد خطِّ الرّسالةِ والهدايةِ البشريّةِ، وتوجّب عليهم القيامُ بالوظائف التّعليميّة ـ التّبليغيّة، والتّربويّة ـ الأخلاقيّة والاجتماعيّة المنوطة بهم على أحسن وجهٍ ممكنٍ. ولطالما أكّدت المعاهدُ والحواضرُ العلميّةُ المبنيّةُ على معارفَ اجتهاديّةٍ وعلى الفكرِ العقليّ ـ الفلسفيّ، أهمّيّةِ التّباحُث العلميّ بين المفكّرين أَنْفُسهمْ وبين المدارسِ الفكريّةِ المختَلِفةِ، وأهمّيّةِ الحوارِ العلميِّ العميقِ بين الأديان والمذاهب، وضرورةِ الابتعادِ

1- ومن ذلك ما جاء في الآية 64 من سورة النساء ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾.

2- من ذلك ما جاء في الآية 82 من سورة المائدة ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانًا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾.

عـن التعصُّبات والإفراطات السّـقيمة. وهـذا مـا يحتاجُـهُ عالمنـا اليـوم أكثـرَ مـن أيّ يومٍ مضـى.

مـن يطالـع التّعاليـمَ القرآنيّـةَ والرّوائيّـةَ والتّاريـخَ الإسـلاميَّ لا سـيّما فـي عهـدِ الأئمّـةِ المعصوميـن ، يجدهـا مليئـةً بالضّوابـط والأحـكام المرتبطـةِ بكيفيّـةِ التّعامُـل مَـعَ أتبـاعِ الدّيانـات الأخـرى. وهـذا يتجلّـى أكثـرَ فـي عهـد الإمـام الرضـا ، حيـثُ توسّـعَت حـدودُ العالـم الإسـلاميّ، وبـدأت العلاقـاتُ بيـن الأديـان بالظّهـور، وزادت وتيـرةُ التّفاعُـلات الثّقافيّـة والحضاريّـة، وأخـذت الأفـكارُ تـردُ إلى الحاضـرةِ الإسـلاميّةِ، سـواء المعـارفُ المسـيحيّة واليهوديّـة أم مـا يختـصُّ بالحضـارات الأخـرى، كالرّومانيّـة، والإيرانيّـة، والمصريّـة، والهنديّـة، والصّينيّـة.

فـي تلـك المرحلـة، ولأجـل الحيلولـة دون تسـلُّلِ الأفـكار غيـرِ الإسـلاميّةِ بيـن المسـلمين، تصـدّى القـادة الحقيقيّـون للأُمّـة الإسـلاميّة، لِتبيـانِ المعـارفَ الإلهيّـةِ العالِيَـةَ بشـكلِهَا الصَّحيـح. عـاش الإمـام الرضـا فـي عصـرٍ بلغـت فيـه المواجهـةُ الثّقافيّـةُ والحضاريّـةُ والفكريّـةُ أَوجهـا. وإذا مـا راجعنـا الأحاديـثَ الـواردةَ عـن الإمـام الرضـا ، لا سـيّما فـي سنوات حضـوره فـي مـرو، لأمكننـا بوضـوحٍ ملاحظـةُ نشـاطِهِ المُكثَّـفِ فـي مواجهـة الأديـان الأخرى. لقـد كان يبيِّـنُ المعارفَ الدّينيّـةَ الخالصـةَ مـن خـلال التّشـبيه والتّمثيـل لِمـا لهمـا مـن جاذبيّـةٍ وقـدرةٍ على إيصـالِ الفكـرة. كمـا أنّـه قـدّم فـي مواجهتـه لأتبـاع الدِّيانـات الأخـرى وسـائر المذاهـب الإسـلاميّة؛ بـل فـي مواجهتـه أيضًـا للمنحرِفيـن مـن الشـيعة الواقفيّـة، أنموذجًـا مُبهـرًا فـي منطـق الحـوار مـع الأديـان الأخـرى، وكيفيّـةِ التّفاعـل بيـن الأديـان.

نقد النَّظرة العقلانيّة وما بعدَ الحداثيّة في التّعامل مع الأديان

تحتـوي معـارف أهـل البيـت علـى مجموعـةٍ مـن القضايـا البدهيّـة والـ «مـا قبـل دينيّـة»، وهـي المُعبّـر عنهـا بالمسـتقلّاتِ العقليّـةِ وبالمفاهيـم المشـتَرَكَةِ العقليّـةِ والفلسـفيّةِ. وهـو يعنـي رفضهـا مفهـومَ النّسـبيَّةِ المطلقـةِ الّتـي تسـدُّ الطّريـقَ أمـام الفهـم الصحيـح؛ إذ ليـس للنِّسـبيّة المطلقـة، لا سـيّما تلـك المبنيّـة على مـا بعد الحداثة، أسـاسٌ عقلـيٌّ أو فلسـفيٌّ مُحْكَـمٌ؛ حيـث يعتمـد اتّجـاهُ مـا بعـد الحداثـة علـى منطـق النّسـبيّةِ الّتـي تجعـلُ مـن الحـوار حـوارًا سـطحيًّا ونفعيًّـا. أمّـا فـي المنطـق المشـيّد علـى مبـانٍ عقليّـةٍ وفلسـفيّةٍ، فالحـوارُ فيـه عميـقٌ ودقيـقٌ، وينطلـقُ مـن مشـتركاتٍ عقليّـةٍ وإنسـانيّةٍ.

في ما يرتبطُ بالحوار الدّينيّ والعقلانيّ، تتمتّع الأديانُ السّماويّة بفلسفةٍ حقوقيّةٍ وأخلاقيّةٍ مشتركة. وهو أمرٌ من شأنِه أن يهيِّئَ الأرضيّةَ المناسِبَةَ لحوارٍ دينيٍّ أعمقَ. وتجدر الإشارةُ إلى أنّ الأمورَ المشتركةَ هي أكثرُ بكثيرٍ ممّا يظهرُ لنا اليومَ، ونحنُ نعترفُ بالحوار الدِّينيّ والإنسانيّ بوصفه أمرًا حقيقيًّا وأصيلًا.

تبتني جميعُ الأديان والمذاهب على عقلانيّةٍ مُنظَّمة، تتمحورُ معتقداتُها حول العالَم والمجتمع الهادفَين. وتسعى الأديانُ المختلفةُ، حتى البشريّةُ منها وغيرُ الإبراهيميّة، إلى فَهْمِ العلاقة بين الإنسان والوجود من جهةٍ، وبينَه وبينَ نفسِه من جهةٍ أخرى. وقد سعت، لا أقلّ في إطار المعايير العقليّة والعقلائيّة، إلى تقديم تفسيرٍ واقعيٍّ وصحيحٍ لكلٍّ من الإنسان والوجود.

في الحقيقة، سَعَتْ جميعُ الأديانِ إلى تأطيرِ علاقاتِها في أُطُرٍ عقلانيّةٍ. وهو أمرٌ يجعلُ حياةَ الإنسانِ ذاتَ معنى، ويَنْعَكِسُ بشكلٍ إيجابيٍّ على أدائِه العمليِّ. لذا، كان الرّبطُ بين الدِّين وعقلانيّة البَشَرِ أمرًا في غاية الأهمّيّة. على سبيل المثال، تُعدُّ العدالةُ والمساواةُ، سِمَةً من سمات العقلانيّةِ البشريّةِ الّتي تظهر على شكلِ المُستقلّاتِ العقليّة؛ لأنّ العقلَ يحكُمُ بِحُسْنِ العَدْلِ وَقُبْحِ الظُّلْم. وفي الإطارِ نَفْسِه، تَظْهَرُ العَقْلَانِيَّةُ الإنسانيّةُ في صُورَةِ الحُكْمِ بِحُسْنِ السَّلَامِ، وقُبْحِ الاعتداءِ، وإراقةِ الدِّمَاءِ والحَرْبِ. من هنا، أَمْكَنَ أن يُقالَ: إنّ العدالةَ والصُّلْحَ هما المحورُ الّذي تَدُورُ حَوْلَهُ جميعُ الأديان والمذاهب، وهي تَسْعَى إلى إدارةِ المجتمعِ على أساسِه.

ينبغي الالتفاتُ إلى أنّ تلك العقلانيّةَ نَفْسَهَا هي الّتي تقتضي من الإنسان رَفْضَ الظُّلْمِ والدِّفَاعَ عَنِ المظلوم. على هذا الأساسِ، كان السّعيُ إلى تحقيقِ العدالةِ والسَّلَامِ، وإلى مجابهةِ الظُّلْمِ، أمرًا مقبولًا؛ بل ممدوحًا في الأديانِ كُلِّهَا. ولا معنى لتحقيقِ الأمنِ والسّلامِ والاستقرارِ في العالم قبل تحقيقِ السَّلام بَيْنَ الأديانِ. ونعتقدُ أنّ الأديانَ البشَرِيّةَ وغيرَ الإلهيّةِ، تستفيدُ مِنْ نَوْعٍ من الشُّمُولِيَّةِ العقلانيَّةِ والسّلوكيَّةِ، تكمُنُ في أصلِ عَقْلَانِيَّةِ تلك الأديانِ؛ لأنَّ الأديانَ جميعَهَا تنتمي إلى حُكمَاءَ بَشَرِيِّينَ استفادوا من العقلانيّةِ الإنسانيّةِ، أو ممّا هو أبعدُ مِنْهَا، بأن كان لهم ارتباطٌ مباشِرٌ مَعَ عقلِ الوجود، أعني: اللهَ تعالى. من هنا، كانت ﴿ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ ﴾ حاضرةً في جميع الأديان ذاتِ المنشأ العقلانيِّ، ذلك المنشأُ الّذي يهيِّئُنا للتّقاربِ والتّحاورِ، وتقبُّلِ القضايا الإنسانيّةِ الأساسيّةِ.

منطق التَّفاعُلُ بين الأديان والمذاهب

هناك حقيقةٌ أخرى في البين، وهي أنّ التّفاعُلَ الحاصلَ بين الأديان والمذاهب ليس ناشئًا عن المجاملة والاضطرار؛ بل يَتَّكِئُ على مَنْطِقٍ عَمِيقٍ وَبِنَاءٍ مُحْكَم. ويمكنُ للأديانِ والمذاهبِ الموجودةِ في عالمنا اليومَ، أَنْ تُشَكِّلَ جبهةً واحدةً مشتَرَكَةً في العالم، انطلاقًا من القضايا والأصولِ المشتَرَكَةِ فيما بينها في ميادينِ الفلسفةِ والحقوقِ والقِيَمِ والفِقْهِ. وإلى جانب الحقيقةِ المُتقدِّمَةِ، لطالما كان للبشريّةِ تعامُلٌ مع قضايا من قبيلَ: الحاجة إلى استعادةِ روحيَّةِ نشر المحبّة، والأمورِ المعنويَّةِ، والعدالةِ والسّلام المبتنِيَين على العدالةِ والمساواةِ بين البشر. تلك القضايا، وبقطع النَّظَرِ عن بُعْدها اَلسِّياسيِّ، هي أوّلًا وبالذّات ذات ماهيَّةٍ دينيَّةٍ، وتؤدّي الأديانُ دَوْرًا مُهمًّا في بيانها وتحقيقها. أمّا بالنّسبة إلى تحقيقِ السّلام المبتني على العدالةِ، وكيفيّةُ مراعاة حقوق البشر، والطّريقُ الّذي يتعيَّنُ على المجتمعات البشريّة اتِّبَاعُهُ بُغْيَةَ تنظيم العلاقاتِ فيما بينها انطلاقًا من الوظائف والتّكاليف والتَّعهُّدات والحقوق المتقابلةَ، فهي من جملةِ الأمورِ الّتي يتعيَّنُ على الأديان تحديدها وتوجيهُ المجتمعات نحوَها من خلال التّعاوُن وتبادُلِ الأفكار والمعايير والتَّجاربِ الخاصّةِ. من هنا، كان عالمُنا اليومَ بحاجةٍ ماسّةٍ إلى تعلّم آداب المحاورة بين الأديان والمذاهب المختلفة. وقد أكّدَ الإسلامُ والعلماءُ المسلمون مرارًا وتكرارًا ضرورة التّعايُشِ الحكيم بين النّاس، والحوارِ بين الأديان الإلهيّةِ، وعلى ضرورةِ احترام المُقدَّساتِ. ولو جُمعَت الأديانُ والطُّقوس البشريّةُ واتّبَعَتْ حُكْمَ العَقْلِ، لوجدناها تدعو النّاسَ إلى «السّعادة» الّتي يُشَكِّلُ «الاستقرارُ والرَّاحَةُ» أحدَ مُكوِّنَاتِهَا الأساسيّةِ. من هنا، كلّما انبرى المُفكّرون والعلماءُ الدينيّون للتّحاور والتّباحث، كان حكمهم طبقًا لـ ﴿كَلِمَةٍ سَوَآءٍ﴾ ولم يكن بينَهُمْ أيّ تَفْرِقَةٍ، أو اختلافٍ.

التفاعُلِ والحوارِ بين الأديان الإلهيّةِ

في العقدين الأخيرين، كثُر الكلامُ حولَ الحوارِ بين الأديان، حتّى غدا أحدَ أهمِّ الأسئلةِ والهواجس الّتي تلاحق المفكّرين والمُنظّرين الدينيِّين. وليس ذلك من جهةِ التشكيكِ في أصل الحوار وضرورته؛ وإنّما سعيًا منهم إلى توضيح مُتطلّبَاتِه، وبيانِ ضرورَتِهِ وفوائِدِهِ. وهناك ضروراتٌ عدَّةٌ جَعَلَتْ من الحوار الدّينيِّ أمرًا لا مَفَرَّ مِنْهُ في عالمنا اليومَ، نذكُرُ منها: الضَّرورةَ المعرفيّةَ، والضّرورةَ الأنطولوجيّةَ،

والضّرورةَ الدينيّـةَ، والحاجـةَ إلى دفـع التّوهُّمـات، وتعزيـزِ الحـوارِ بيـن الأديـان. وَمِـنَ الوَاضِـحِ أنّ الحـوارَ الدِّينـيَّ يسـاعدُ عَلَى فَهْـم مَعَـارِفِ الأديـانِ الأخـرى بشـكلٍ صحيـحٍ وواضـحٍ، كَمَـا يُسْـهِمُ فـي عـلاجِ العديـدِ مـنَ حـالاتِ سـوء الفَهْـمِ والأحـكامِ المسـبقة، ويفتـحُ البـابَ أمـامَ التَّقـاربِ العَقَـدِيِّ والقِيَمـيِّ والسُّـلُوكيِّ.

هـذا، ولـن تسـتطيعَ الحـوزاتُ العلميّـةُ أن تسـتعيدَ دورَهَـا التَّاريخـيَّ والأصيـلَ مـا لـم تَكُـنْ على معرفـةٍ جيّـدةٍ بالظُّـروفِ الحاليّـةِ والمسـتقبليّةِ وباحتياجـاتِ شـعوبِ العالـمِ وبالحـركاتِ الفرديّـةِ والجماعيّـةِ المؤسّسـاتيّة ذاتِ الصِّلَـةِ، معرفـةً شـامِلةً ومدروسـةً، حتـى تتمكّـنَ مـن تعريـفِ مُنتسِبيها بالجوِّ الحقيقـيِّ والموضوعـيِّ لدنيـا اليـوم. فحتـى تتمكّـنَ الحـوزاتُ مـن مخاطبـةِ الفئـة الّتـي تسـتهدِفُها، يتعيّـنُ عليهـا أوّلًا التَّعـرُّفُ إلى لُغَتِهَـا وأدبيّاتِهـا وطريقـةِ تفكيرِهـا، وعلـى هواجِسـها وقضاياهـا ومشـاكلِها. يجـبُ علـى الحـوزات أن تعلـمَ كَيْـفَ يُفكِّـرُ مخاطَبوهـا ومـا الّـذي يتوقّعونـه منهـا. وسـوف سـتُنجَزُ تلـك المَهمَّـةُ العظيمـةُ عندمـا يُـدرَسُ تاريـخُ المخاطَبيـن وجغرافيّتُهُـم مـن قِبَـلِ أشـخاصٍ فاعليـن واعتمـادًا على الأدواتِ المناسِـبَة، والأسـلوبِ الصَّحيـح، والمناهـجِ الأصوليّـة، وعندمـا يُلتَفَـتُ إلـى جميـعِ الأمـورِ المؤثِّـرَةِ والفَعَّالَـةِ، مِـنَ الأدواتِ المسـتخدَمَةِ، إلـى الخطـواتِ العمليّـةِ، والمضامِيـنِ التّبليغيّـة. فليـس الوجـودُ العلمـيُّ والثّقافـيُّ للحوزويِّيـن فـي مختلـفِ المحافِـلِ الدَّوْلِيَّـةِ أَمْـرًا مُمْكِنًـا إلَّا مِـنْ خِـلَالِ زيـادةِ قُدْرَتِهِـمْ، ورَفْـعِ مُسْـتَوَى مَعْرِفَتِهِـمْ وبَصِيرَتِهِـمْ.

نَظَرِيَّاتٍ حَوْلَ التَّقَارُبِ والتَّفَاعُلِ بَيْنَ الأَدْيَانِ

فـي النّظريّـة الأولـى، كان السَّـعيُ وراءَ دَمْـجِ الأديـان بَعْضِهَـا بِبَعْـضٍ وَجَعْلِهَـا دينًـا واحِـدًا. وهـي نظرِيَّـةٌ نُخالِفُهَـا؛ إذ لا مجـالَ للقـولِ بهـا فلسـفيًّا، فضـلًا عـن كونهـا غيـرَ واقعيَّـةٍ، ولا مجـالَ لتحقّقهـا خَارجًـا. أمّـا النّظريَّـةُ الثانيّـةُ، فتدعـو إلى أصـل التَّديُّـن دون اعتنـاق ديـنٍ معيَّـنٍ، وهـي النَّظريّـةُ المطروحـةُ اليـومَ فـي الغـرب. طبقًـا لهـذه النظريّـة، يجـبُ التّخلّـي عـن الفـوارق بيـن المذاهـب، والتّركيـزُ على المشـتركات فقـط، وهـذا أمـرٌ غيـرُ مقبـولٍ أيضًـا. والنّظريّـة الثالثـةُ هـي التّعدّديّـةُ الدّينيّـةُ، الّتـي يعتقـدُ القائلـون بهـا بِصِـدْقِ جميـعِ الأديـانِ والمذاهـبِ وصحّتِهـا. وهـي، كالنّظريّـةِ الأولـى، مرفوضـةٌ فلسـفيًّا؛ لأنّـه لا يُمْكِـنُ عقـلًا الحكـمُ بصحّـة جميـعِ الرُّؤى وصِدْقِهَـا. أمّـا النَّظريّـةُ الرابعـةُ، وهـي الّتـي يعتقدُهـا المسـلمون وأتبـاعُ مدرسـة أهـل البيـت عليهم السلام، فمُفَادُهَـا احتـرامُ الأمـورِ

المشتَرَكَةِ بينَ الأديان. وفقًا لهذه الرُّؤية، لا ينبغي لنا القولُ بكُفْرِ غير المنتسبين إلى هذه المدرسة وباستحقَاقِهِمُ الموتَ؛ بل يَجِبُ علينا وضعُ القتلِ جانبًا، والتّخلّي عن مقولة نحن أهلُ الجنّة وغيرُنا في النّار. أمّا في نقاط الخلاف مع سائر المذاهب والأديان، فالمجالُ مفتوحٌ للنّقاش والتّحاور.

نواجهُ في عالمنا الإسلاميِّ اليومَ عددًا من التّحدّيات، من قبيل: التّحدّيات العَقَديَّة ـ الفِكْريَّة، والتَّحدِّيات الأخلاقيّة، وانهيار نظام القِيَم، وإحياءِ الفكرِ القوميِّ، وتجْزئَةِ الدُّوَلِ الإسلاميّةِ، والخوفِ من الإسلام، والخشيةِ من الشِّيعَةِ، والذُّعْرِ مِنْ إيران، واستبدال خطاب الثّورة الإسلاميّة المُتأسّس على الإنسانيّة والعدالة بالخطاب الإسلاميّ الطالبّانيِّ المُتحجِّرِ، أو الإسلاميِّ اللّيبراليِّ التّنويريِّ، وكَسْرِ جبهةِ المقاومةِ ضدّ أعداء البشريّة. ويمكنُ للحوزة العلميَّةِ أن تُجيبَ عن هذه التّحدّياتِ من خلال فَهْم الجغرافيا المعرفيّة للعالم، واعتمادًا على نشاطَاتِها الدّينيّة.

هناك أمورٌ أخرى لا بُدّ منها إذا ما أردنا إيجادَ تفاعُلٍ بين الأديان، من قبيل: التّعريفِ بآراءِ علماءِ الحوزة العلميّةِ في الحواضر العلميّةِ الدينيّةِ العالميّةِ، وحضورِ الحوزويّين واطّلاعِهِمْ على القضايا العالميّة المرتبطة بالأديان الأخرى، وعلى كيفيَّةِ التعامُلِ مَعَ عُلَمَاءِ تلك الأديان، وضَرُورَةِ فَهْم الدّياناتِ الأخرى بشكلٍ صحيح، ودراسةِ علم اجتماع الدِّينِ والتّاريخ، وموقعيّةِ الأديان في العالم المعاصر، ومتابَعَةِ الأبحاثِ والدِّراساتِ العالميّةِ الّتي تتناولُ المعارفَ الإسلاميّةَ الأصيلةَ؛ بل الإسهام فيها كتابةً وتصحيحًا. وبيانِ ضرورةِ تهيئَةِ الأرضيَّةِ الثّقافيَّةِ اللّازِمَةِ؛ بحيثُ يكونُ للحوزويّين تأثيرٌ على السَّاحةِ العالميّةِ، والتّشاوُرِ والتّعاوُنِ بينَ الأديانِ في مواجهةِ المشاكلِ الّتي تُهَدِّدُ مصلحةَ البشريَّةِ جمعاء. وحاجتنا اليومَ إلى ثورةٍ دينيّةٍ تملأُ الفراغَ المعنويَّ لدى البشر، والعلاقاتِ الوثيقةِ والمُنظَّمَةِ بينَ النُّخَبِ والمؤسّساتِ والجهاتِ الدينيّةِ الفاعلةِ بُغْيَةَ العَمَلِ مَعًا على السَّاحَةِ الدينيّةِ العالميَّةِ، وضرورةِ الخروج عن الحالةِ الانفعاليّةِ، والحضورِ الفعَّالِ في الحوار الدِّينيِّ والمذهبيِّ، وتبليغِ معارفِ أهلِ البيتِ عليهم السلام، وتَعْزيزِ مَكانَتِهَا في قِبَالِ الأديانِ والمذاهب الأخرى.

انطلاقًا من وجودِ ضروراتٍ يقتضيها البحثُ الدّينيُّ، فإنَّ الحوزةَ العلميَّةَ مُصمِّمَةٌ على تبنّي سياساتٍ كُلِّيَّةٍ ووضع أهدافٍ وأولويّاتٍ وإستراتيجيّاتٍ عامَّةٍ ـ طويلة الأمد ومُتوسّطة الأمد وقصيرة الأمد ـ والعمل على وفقِهَا، وعلى دراسةِ نحوِ

تعامُلِهَا مع المؤسّساتِ الدَّوْليَّةِ، الرسميَّةِ منها وغيرِ الرسميَّةِ، الفاعلةِ على السَّاحَةِ الدينيّةِ. كما أنّه من الضَّروريِّ مراقبةُ سَيْرِ الأنشِطَةِ والفعّاليّات الدّينيّةِ، والتَّأكُّدِ من حُسْنِ تنفيذِهَا، ومن فعاليَّةِ العَمَلِ الحوزويِّ المُنظَّمِ، حتّى يكونَ حضورُ الحوزةِ في المحافلِ الدّينيّةِ العالميّةِ بالشَّكْلِ المطلوب.